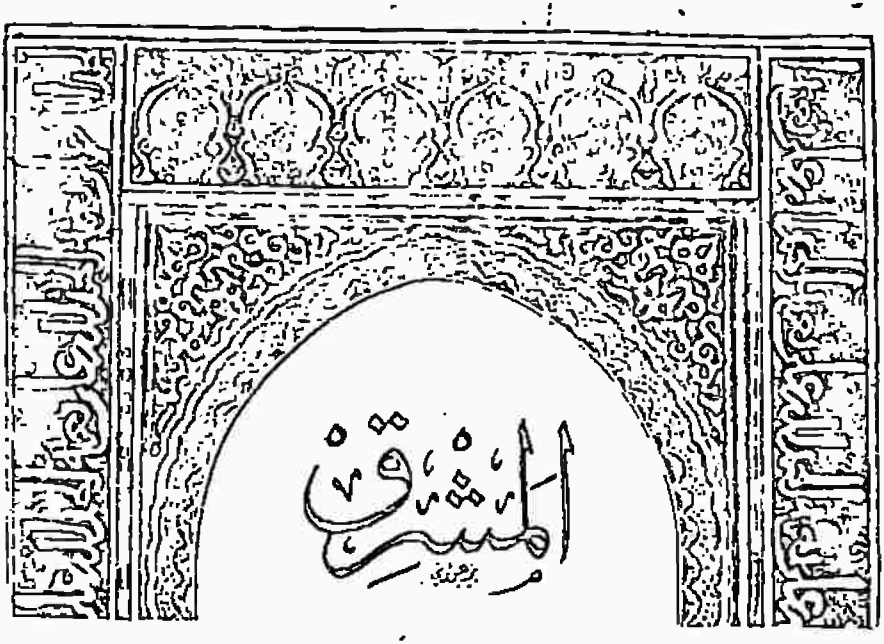

كانون الثاني ١٩٢٩

على قبر الاب لويس شيخو

مرّ السابع من كانون الاول الماضي ، ومرّت معه السنة الاولى على وفاة مؤسس « المشرق » ومديره ، المأسوف عليه كثيراً ، المرحوم الاب لويس شيخو . ولقد قام قلم تحرير المجلة ، على اثر الفاجعة ، بذكر بعض مميزات الفقيد ؛ فنشر في عدد كانون الثاني ملخص تلك الحياة الملأى بالاعمال والامثال . ثم اظهر ، في عددي شباط وآذار ، ما كان لتلك الاعمال من الفائدة لتاريخ الآداب العربية خاصة ، وللتاريخ الشرقي عامة ، لاسيما ما اختص منه بتاريخ النصرانية في الشرق . اما الآن فاننا نودّ جمع بعض شهادات تبرهن عن التأثير الشديد الذي احدثه في البيئات المختلفة موتُ الاب شيخو ، وعن الفراغ الواسع الذي تركه في جيوش العلم ذاك العالم المعتبر .

* * *

في مساء الثامن من كانون الاول سنة ١٩٢٧ ، ضاقت كنيسة كلية القديس يوسف عن المتقاطرين اليها من ارباب الفكر في بيروت ، ليشهدوا

بخشوع ، الصلاة الاخيرة عن نفس الفقيد العزيز . وكانت الاكاليل قد أرسلت من قبل رئيس المجلس النيابي اللبناني ، عطوفة الشيخ محمد الجسر ، ومن قبل وزير المعارف العامة اللبناني ، ومن قبل نقابة الصحافة . وعند ابتداء الصلاة ، تقدّم سعادة الاستاذ بشاره بك الخوري ، رئيس الوزارة اللبنانية ووزير المعارف ، فانحنى على نعش الراهب الوضيع ، وعلّق عليه ، باسم حكومة لبنان وشعبه ، مدالية الاستحقاق اللبناني الفضية ذات السعف ، للاسباب التالية :

« بقي نحو خمسين سنة يخدم اللغة العربية بنشر كنوزها المدفونة ، وتأليف الكتب العديدة فيها . وخدم لبنان خاصةً وبلاد الشرق عامّة ، بما نشره من التآليف عن تاريخها وآثارها وعلومها ، حتى بلغت مطبوعاته مائة وعشرين مجلّداً . فاستحقّ شكر لبنان . »

وفي شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٨ ، لما التأمت الجمعية اللبنانية للتعاون الفكري ، التي كان الفقيد عضواً فيها ، وقف رئيسها الاستاذ كمال اده ، ووصف حياة الاب شيخو العلمية بتعابير انيقة ، ثم اوقف الجلسة حداداً . وقد اشترك في المؤاساة حضرة الدكتور بشير فخار رئيس الكلية الاسلامية في بيروت ، فألقى تأبيناً نشره المشرق في حينه (عدد شباط ١٩٢٨) .

وما انتشر النعي حتى اخذت برقيات المؤاساة ورسائل التعزية تتوارد من كل جهة على كلية القديس يوسف ، وعلى ادارة المشرق . وكان من اولاها برقية من مصر وقعها ذو الفقار باشا ، كبير حجاب جلالة الملك فؤاد ورئيس جمعية قدماء تلامذتنا في مصر . فتأسف فيها ، باسم جميع القدماء ، لوقع ذاك المصاب « بوفاة استاذهم القديم ، وخسارة الآداب العربية التي لا تعوّض . »

هذا ولا يسعنا المقام لذكر جميع برقيات التعزية والمؤاساة العديدة ، فنكتفي بالاشارة الى برقيات : الجالية المارونية في سانپاولو (البرازيل) ، ونادي الشبيبة الارثوذكسية في يافا ، ورئيس الجامعة الاسلامية في دمشق ، والى رسائل الجامعة الاميركية في بيروت ، والآباء الصعوديين في قاضي كوي ، ومديري مجلة (Echos d'Orient) العلماء ، ومعهد الدروس العالية المراكشية في الرباط (مراكش) ، وادارة تحرير مجلة (Deutsche Palaestina Verein) في برلين ،

وادارة مكتبة مقاطعة فريبورغ (سويسرة)، وادارة مكتبة مدرسة اللغات الشرقية في برلين. الى غير ذلك من الجمعيات العلمية او معاهد علوم الاستشراق. وكلهم يبدون اسفهم الشديد لفقد العالم المعتبر، ويقدرون صفاته الممتازة كرجل وكراهب. وسنذكر اقوالهم في آخر هذه الاسطر، شاكرين للجميع عواطفهم النبيلة في مشاطرتهم ايانا تحمّل تلك الفاجعة.

وقد شاطرنا وقع المصاب ايضاً جميعُ الطوائف المسيحية في الشرق. فارسل غبطة السيد عمانوئيل توما، بطريرك الكلدان الجليل، يعبّر لنا «عن ألمه الذي لا يوصف، لدى وصول نعي الاب شيخو الكثير التُقى، والوافر العلم. وقد وقع هذا النعي عليه وعلى كهنته في بغداد، وقوعَ الصاعقة. لان المصاب بهذا الراهب العالم القديس، سيُحدث في جميع الشعب الكلداني حدادًا عامًّا كما انه سيُحدث فراغاً لا يُسدّ في جميع الرسالات الشرقية.»

واتانا من الاستاذ شتروتمان محرّر المجلة المشهورة (Der Islam) رسالة تعزية باسم جميع مستشرقي هامبورغ (المانية) يقول فيها: «نحن ايضاً قد خسرنا بالفقيد عالماً متخصّصاً نعتبره عن جدارة واستحقاق. ونحن نشعر معكم بالفراغ الذي احدثته وفاته.» وختم الرسالة بطلب المعلومات عن حياة الفقيد، لكي يتمكن من نشر المقال الذي يستعدّ لكتابته عنه في المجلة المذكورة.

ووافتنا رسالة تطلب المعلومات نفسها من كييف (روسية)، وذلك باسم المجمع العلمي في اركرانية، بعد ان ذكرت غاية سرسليا، وهي الرغبة في «تخليد ذكرى الاب شيخو، العالم الشهير، بين مستشرقي الروس»

ومن روسية ايضاً اتتنا رسالة الدكتور اغناطيوس كراتشكوفسكي، عضو المجمع العلمي للجمهوريات السوفياتية، وسكرتير فرقة التاريخ ودرس اللغة. كتب الينا بها من لينغراد، قال: «ان الخسارة التي اصابتكم سيشاطركم ايّاها جميع علماء العربيّة في الدنيا قاطبةً. لان الفقيد كان، ولا منازع، اشهر عالم في موضوعات الآداب العربيّة النصرانيّة. واننا لنتصوّر بصعوبة وجود خلفٍ له في هذا الفرع. وفي سائر المعارف العربيّة نرى من الصعب ايضاً وجود مثيل له. وان مجلة «المشرق» التي أسسها الفقيد وادارها تمثل دائرة معارف الدروس

العربيّة ، وموضوعات الاستشراق على الجملة.

« على انني اشعر شخصياً بعظم هذه الخسارة لانه كان لي الحظ بالاستفادة من تعليمه الشفهي في المكتب الشرقي ، وباتباع محاضراته مدة السنوات ١٩٠٨—١٩١٠ . وقد تبادلت واياه ، بعد ذلك ، صلات متتابعة يسبغها الاخلاص. ولم يكن قط ليرفض مساعدتي بمعلوماته ، ومعاونتي بنصائحه الغالية . »

وكان الدكتور اوغست هَفنر ، استاذ اللغات الشرقيّة في جامعة انسبروك (التيرول)، قد اقام مدة سنتين ضيفاً على كلية القديس يوسف . ثم طبع ، مع الاب شيخو ، عدة رسائل في اللغة العربيّة كانت لم تُنشر بعد . فكتب الينا ما يلي :

«لم يقتصر اعجابي بالفقيد على صفاته بحّاثةً وعالماً واستاذاً فقط ، بل ساعدني الحظ بالتقرب منه الى درجة امكنتني ان اعطيه اسم الصديق . وها ان ذكرى اقامتي في كلية بيروت المضيافة تحيي فيّ اليوم فتعيدني الى زمن كنت فيه اعاشر الاب شيخو ، واقدر فيه صفات الرجل وصاحب الاقدام . وقد كنّا نتبادل ، حتى الشهور الاخيرة ، الرسائلَ المختلفة في البحث عن بعض المسائل العلمية . هذه هي التذكارات الصالحة والنفيسة التي اتى الموت فجأةً فقطع مجراها ! »

* * *

للبعثة البروتستانيّة في مصر صحيفة شهرية تصدر باللغتين العربية والانكليزية اسمها « الشرق والغرب » . وقد كتب الينا محرّروها من القاهرة « يعربون عن تأسفهم الشديد لموت الاب شيخو المشهور شهرة حقّة بسبب فضائله المسيحيّة وغيرته على تقدّم الدروس الشرقيّة . ونحن ، من زمن طويل ، نقدر قيمة آثار الاب ليس فقط فيما خصّ العالم المسيحي ، بل فيما خصّ البيئات العلميّة ايضاً . فنتقدم لآبائه كلية القديس يوسف واجبات المؤاساة والاحترام بمناسبة الخسارة التي وقعت عليهم . » وكان مع الكتاب ترجمة افرنسية للاسطر التي خطّتها مجلة « الشرق والغرب » بالفقيد . وهذا تعريبها :

« باسف شديد تلقّت ادارة المجلة نعي المستشرق ، حضرة الاب لويس شيخو من كلية القديس يوسف في بيروت . ان الاب المرحوم ، الذي لم تكن غيرته العلمية لتنقص عن تقاه المشهور ، قد عمل اكثر من ايّ انسان في سبيل

نشر الآداب العربيّة النصرانية قبل الاسلام واظهار قيمتها . ولهذا فان جميع مريدي الآداب العربيّة سيظلّون مَدينين لابحاث الاب شيخو التي قدّم بها معرفتنا بالشعر العربي القديم .»

وارفر من ذلك تأثيرًا ما نشرته بكل ايجاز عن وفاة الاب شيخو المجلة (The american Journal of semitic Languages and Litterature) التي تصدر في اميركة الشمالية[1] في شذرة اغفل كاتبها ذكر اسمه ، ولكنه يظهر انه عرف فقيدنا شخصيًا ، فرغب ان يخصّص له سطرًا « يتضمن معرفة الجميل لذكرى صديقنا الممتاز ومعلّمنا ذي الحنوّ الابوي ، الاب لويس شيخو الذي سيبقى اسمه حيًا في تذكارات زملائه المستشرقين ، وفي قلوب الشعوب العربية . وها إن كتبه تشهد بسَعة معارفه ، وبباطته المحبوبة التي تشابه بساطة الولد .»

بساطته المحبوبة التي تشابه بساطة الولد ! وهل كان بالامكان ان تُنعت بارفر وضوح عقلية المرحوم الاب شيخو ؟ ولهذا فان اسمه سيبقى حيًا في قلوب الشعوب العربية ، كما يقول الكاتب العالم.

هذا وان باقي مجلّات المستشرقين لم تجد لديها ، حتى الآن ، متّسعاً من الوقت يمكنها من قدر اعمال الاب شيخو . وقد باشر كثير منها هذا الدرس كما قدّمنا . وان المطّلعين على الفترات الفسيحة بين العدد والآخر من هذه الصحف لا يستغربون تأخرها

ويسرّنا ان نختم بتعريب اسطر تفيض فيها عاطفة الحب والاحترام للاب الفقيد ، وللمرسّسة التي قضى فيها حياته الملأى بالعلم والعمل . ننقلها عن مجلّة (Rivista dell'unione missionaria del clero in Italia.)[2] وقد وقّعها مستعرب شابّ من كبار النوابغ على حداثة سنه :

« في اوائل كانون الاول سنة ١٩٢٧ ، كنت اتحدّث عن الاب شيخو و « مشرقه » الى احد مستعربينا المشاهير . فذكر لي اعجابه بالحميّة التي تدفع هذا الرجل السبعيني الى متابعة عمل مهمّ يكاد يكون وحيداً في القيام باعبائه . وكيف انه ينعش بما ينشره قلمه السيّال من المقالات القيّمة المختلفة الموضوعات

١) شهر نيسان ١٩٢٨ ، ص : ٢٠٧ ٢) عدد شباط ١٩٢٨ ، ص: ٢١

المتابعة العناوين ، تلك المجلة اللطيفة ، ذات الغلاف الازرق ، التي تأتي كل شهر ، حاملةً الى مكتبي ، سلامَ ذاك الشرق البعيد الذي لم يُتح لي بعد ان اتعرف اليه . في تلك الايام ذاتها ، كان قد وصلني العدد الاخير من المجلة مرتدياً ثوباً ابيض دلالةً على اليوبيل الفضي . وفيه القى الاب شيخو نظرةً اجمالية على حياة مجلّته مدة ربع قرن ، حياة لم تكن لتخلو من صعوبات وقلاقل . عندما كنت اتحدّث عنه ؛ عندما كنت اتصفّح سطوره الأخيرة المفعمة بالغيرة والسرور المشروع لدى مشهد العمل المتمم البناء المشيَّد الاركان ؛ عند ذاك من كان ليتبنني أنّ على الطريق تلك الورقة المحاطة بالسواد ، التي تذكر فيها كلية بيروت خسارتها الفجائية بفقد بطلها البارز وركنها المتين .

« ولكنّ ذاك النعي ، على شدّة ألمه ، أثّر فيّ ، كما يؤثر في كل من عرف الفقيد ، وان عن بعد ، أثرًا من الطمأنينة هادئاً ، أثرَ مشهد عامل يتراجع بسكون امام عمله التام ، وقد ارتاح ضميره الى انه قام بواجبه حتى النهاية . ان الدين والعلم ، اللذين خدمهما الاب شيخو مدة حياته ، كما خدمتهما كلية القديس يوسف ، هما مسروران دون شك من الاول ومن الثانية : هما مسروران من الرجل الذي ، قبل موته بقليل ، القى ، في آخر مقالة خطها ، لمحةً اجمالية على المعتقد الكاثوليكي ، ثم انطفأ بكل طمأنينة وسلام مسلماً سراج الحياة الى من هم اعظم شباباً منه . هما مسروران ايضاً من المؤسسة التي كانت ولا تزال مصدرًا للايمان والعلم ، والتي تناولت من اليدين اللتين جمّدهما الموت ذاك السراج ، ينبوع النور والحرارة ، وناولته لغيرهما من عمّالها راغبةً في ان تعزيهم وتعينهم على تحمّل ايام الحداد ، وتهيئهم لانتظار ما يفضل ذلك من الايام . » (فرنسيسكو غبريالي)

* * *

شاء الله سبحانه ان يستأثر بالمرحوم الاب شيخو ، فيجازي خادمه الصالح الامين . فلتكن مشيئته ! ولتكن مشيئته ايضاً بان ينعم على من خلف الفقيد في « مشرقه » بان يسيروا على خطواته في خدمة الحق سبحانه ، وخدمة الوطن العزيز !

جاءني الموت فألفيتني ... ملتمعًا على نفسي وشيك الوساد
نجيء من حولي شعوع التقى ... مفقودة لعنانها بالحداد
وقد حانى الرأس أودت به ... أنفاسه الحرى وطول السهاد
عزفة مفعمة رهبة ... يغالب النور عليها السواد
دمع يجري هادئًا قانيًا ... كأنما في العين مشوك الفؤاد
جثت في وقد أغمضت ... أجفانه وامتد فيه الفساد
ت الى الغبراء ذراته ... وأسرعت في عودها للعماد
ت النفس الى أصلها ... فالت من علقات الصفاد
أهل فوق النعش آلامهم ... حائمة كالعطف فوق المهاد
ون في روعهم ساريًا ... أتركه فجر الهدى والرشاد
تت الآفاق عن سرها ... وانصدعت سبع الطباق الشداد
كون نورًا فائضًا رحمة ... ينثرها في الكون باري العباد
ندي بالحب أو والجنا ... فكل روح نفحة من وداد
رض في بهواتها لحمة ... خاطرة أو ذرة من رماد
طحب القوم على سطحها ... ما بين أجناد الهوى والوهاد
وا بنير الأرض أطماعهم ... واستقدحوا في كل خفق زناد
يت بالترب أرز أحلامهم ... فالها فوق السحاب امتداد
ذت في ساطعات الضحى ... أرخيتني من بعد ليل الجهاد
في مثواي مستسلمًا ... للحب تحت العرش حتى المعاد
قظوني إن أكن حالمًا ... فقد أضاء الموت نور الفؤاد

يوسف عنصور